

علامات السعادة والفلاح



«من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه، زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله، زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم. وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره، وكلما زيد في عمله زيد في فخره وإحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه، وهذه الأمور إبتلاء من الله وإمتحان يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام. وكذلك الكرامات: إمتحان وإبتلاء كالمملك والسلطان والمال، قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَدْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) (النمل/ 40)، فالنعم إبتلاء من الله يظهر بها شكر الشكور، وكفر الكفور، كما أن المحن بلوى منه سبحانه. قال تعالى: (وَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذًا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّسَهُ فَأَيَّقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذًا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَأَيَّقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا...)

(الفجر/15-17). أي: ليس كل من وسعت عليه يكون ذلك إكراماً مني له، ولا كل من ضيقت عليه يكون ذلك إهانة مني له" (ملخص من كتاب الفوائد لابن القيم). - تحبيب الله إلى خلقه: يبيِّن ابن القيم في كتابه "الفوائد" طريقة بعض الناس في تبغيض الله إلى خلقه، وطريقة الإصلاح والدعوة الصحيحة فيقول ما ملخصه: "الجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون

لحقائقها يبغضون إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريقة محبته، والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون، فمنها أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن طال زمانها وأتى بها العبد بظاهره وباطنه، وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع التقي من المحراب إلى الماخور، ومن التوحيد والسبحة إلى الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر، وصاحب هذه الطريقة يظن أن الله يقرر التوحيد والقدر ويرد على أهل البدع وينصر الدين إن هذا الاعتقاد إذا استحكمت في قلوب الناس صاروا إذا أمروا بالطاعات، وهجر اللذات، بمنزلة إنسان جعل يقول لولده: "معلمك إن كتبت وأحسنت وتأديت ولم تعصه ربما أقم حجة عليك وعاقبك وإن كسلت وتعطلت وتركت ما أمرك به ربما قريك وأكرمك" فيودع بهذا القول قلب الصبي ما لا يثق بعده إلى وعيد المعلم على الإساءة ولا وعده على الإحسان، وإن كبر الصبي، وصلاح للمعاملات والمناصب قال له: هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيراً أميراً ويأخذ الكيس المحسن فيخلده في الحبس ويقتله ويصلبه، فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه، وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده وأزال محبته من قلبه وجعله يخافه مخافة الظالم الذي يأخذ المحسن بالعقوبة، فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة، فلا يفعل الخير يستأنس ولا يفعل الشر يستوحش، وهل في التنفير عن الله، وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟ ولو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله (ص) به الناس لصلح العالم صلاحاً لا فساد معه، فإسبحانه، أخبر: أن الله إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسن لديه ظلماً ولا هضماً، ولا يخاف بخساً ولا رهقاً، ولا يضيع عمل محسن أبداً، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة، ولا يظلمها. قال سبحانه: (وَإِنَّ تَكُنْ حَسَنَةً يُمْضَاغْفَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء / 40). وقال: (وَإِنْ كَانِ مَثْقَالَ حَبِّ سِنَةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَدَلَّ أَتَيْدًا بِهَا وَكَفَى بِنَدَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء / 47). وقال: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (الشورى / 40). داعية القوم لا يحسد ولا يحقد: بين الإمام الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" معنى الحقد والحسد فقال ما ملخصه: اعلم أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن فاحتقن فيه فصار حقداً، وعلامته: دوام بغض الشخص وإستثقاله والنفور منه فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد. وفي الصحيحين عن النبي (ص) قال: "لا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا..". قال ابن سيرين: "ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأن الله إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟". إن النفس قد جبلت على حب الرفعة فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها شق عليها وكرهته وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي. إن من

يحسد نبياً على نبوته فيجب ألا يكون نبياً، أو عالماً على علمه فيؤثر ألا يرزق ذلك أو يزول، فهذا لا عذر له، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإنّه لا يأثم بذلك فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاها فأحب أحدهما أن يستبق، وقد قال تعالى: (وَفِي ذَلِكَ فَلَا تَتَنَزَّاهُ فَسِرِّ الْمُتَنَزَّاهِينَ) (المطففين/ 26). ومن أسباب الحسد: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها. وأسوأ الأسباب خبث النفس وشحها على عباد الله فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصّف عنده حُسْنُ حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به، شق عليه ذلك، وإذا وصّف له اضطراب أمور الناس، وإدبارهم، وتنغيص عيشهم، فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه، وخزائنه. إن علماء الدين لا يكون بينهم محاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه وتعالى، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق فيما عند الله، لأن أجل ما عند الله لذة لقائه، وليس فيه ممانعة، ولا مزاحمة، إلا أنّه إذا قصد العلماء بالعلم المال، والجاه تحاسدوا. نسأل الله الإخلاص والصدق في القول، والعمل. الداعية إلى الله يثير التفكير في عقول المدعويين: (أَلَمْ تَرَ وَكَيْفَ خَلَقَ اللَّاهُ سَيِّعَ سَمَّاءَاتٍ طَيِّبَاتًا) (نوح/ 15). ومما يثير التفكير أن ننظر في بعض الكلمات للعلماء: . إنني لا أتصور لقمة الخبز رسمت لنفسها هذا الطريق تحوّلت من تلقاء نفسها إلى دم، والدم تحوّل من تلقاء نفسه إلى مني، والمنّي تحلّ من تلقاء نفسه إلى إنسان سوى العضلات مكتمل الحواس يمشي على الأرض. . هل في بطن الأم مصانع تصنع الأيدي والأرجل؟ من الذي شق الجفون ووضع العين المبصرة، من الذي صنع الأنف، والأذن؟ إنها مصانع، ولكنها من طراز "كن فيكون". . هذه النجوم والكواكب التي لا يعلم عددها إلا الله: كيف تدور في مدارات معينة، وبسرعة هائلة لا تصدم ولا تسقط؟ قال سبحانه (وَيَمْسُكُ السَّمَاءَ أَنْ تَنْتَفِعَ عَالَى الْأَرْضِ إِلَّا بِلِذْنِهِ) (الحج/ 65). . هذا الفلاح يزرع التفاح بجوار الفلفل: الأرض واحدة، والماء واحد فمن الذي وضع الحلاوة في هذا، والحراقة في هذا؟ . هذه أعواد القصب خارجة وسط تربة منتنة، ومروية بماء كدر، فمن الذين وضع فيها السكر؟ . إن أفضل درس ندرسه لأولادنا في توحيد الربوبية، أن نأخذهم إلى حديقة غناء، ونشير إلى الورود، ونقول بأي ريشة رسمت هذه الألوان؟ . هذا البحر، من الذي جمع فيه ذرات الاوكسجين والهيدروجين وجعلها صالحه حمل السفن الماخرة؟ . من الذي زود الأسماك بالخياشيم لتستخلص الهواء المذاب في الماء؟ (من كلمات الشيخ محمد الغزالي - يرحمه الله). من الجهل أن تطلب تعظيم الناس لك وأنت لا تُعظم الله، في معنى قوله تعالى: (مَالِكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّاهِ

وَقَارًا) (نوح/ 13). قال ابن القيم - يرحمه الله تعالى - في كتابه "الفوائد" ما ملخصه:
من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم، والتوقير لك من الناس، وقلبك خال من تعظيم الله
وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجعله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى:
(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)، أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه،
والتوقير هو التعظيم. فهم لو عظموا الله، وحدوه، وأطاعوه، وشكروه فطاعته سبحانه واجتناب
معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره في القلب، فلا تستهن بحقه، ولا تجعله أهون الناظرين
إليك، ولا تقدم حق المخلوق عليه، ولا تعط المخلوق في مخاطبته قلبك، وتعطي الله بدنك ولسانك
دون قلبك وروحك، ولا تجعل مراد نفسك مقدماً على مراد ربك، فهذا كله من عدم وقار الله في
القلب، ومن كان كذلك فإن الله يا يلقي له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبة بل يسقط وقاره
وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره فذاك وقار بغض لا وقار حب، وتعظيم. ومن وقار
الله أن يستحي العبد من إطلاعته على سره، وضميره فيرى فيه ما يكره، ومن وقاره كذلك أن
يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس. ►

المصدر: (مجلة المجتمع/ العدد 1442 لسنة 2001م)